كتاب التاج

للجاحظ

بتحقيق أحمد زكى باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) "الحمدُ لله الذى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الحمدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ."

أحمَده على تتابُع آلائه، وتواتُر نعمائه، وترادُف منّه، وأستهديه[1] وأستوفقُه لما يُرضيه ويَرضى فيه.

وأشهد أنْ لاإله إلّا الله الذى لاشبيهَ له ولا نظير، الذى جلّ عن الأجزاء والتبعيض، والتحديد والتمثيل، والحركة والسكون، والنُّقْلة والزوال، والتصرُّف من حال إلى حال. لاإله إلّا هو الكبير المتعال!

وأشهد أن محمّدًا عبدُه ورسولُه وأمينه ونجيّه! ابتعثه على فَترة من الرسالة وطُمُوس من الهداية ودروس من شرائع الأنبياء والمرسَلين "لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ" والعربُ تَئِدُ أولادها وتتسانك دماءها وتتباوح[2] أموالَها وتعبُدُ اللاتَ والعُزّى ومَنَاةَ الثالثةَ الأُخرى. فصدع بأمر ربّه، وجاهد فى سبيله، ودعا إلى معالم

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة عن صـ.

(٢) الوارد فى صـ: "تناوح". ولما كان السياق يدل على التناهب والتباحة الأموال، فلذلك صححتُ الكلمة بردِّها إلى مادة (ب و ح). قال فى لسان العرب: "والإباحةُ شِبْهُ النَّهْبِ، وقد أستباحه أى أنتهبه".

على أننى لم أعثر على هذا الحرف مستعملا بصيغة التفاعل.

دينه، وجاء بما أعجز الجنّ والإنس أَنْ يأْتُوا "بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا." فصلّى الله عليه وعلى جميع المرسَلين! وخصّه بصَلاةٍ من نوافله دون العالَمين! وعليه السلام ورحمة الله وبركاته![1]

أما بعد.

فإنّ الذى حدانا على وضع كتابنا هذا معانٍ:

منها أنّ الله (عزّ وجلّ) لمّا خصّ الملوكَ بكرامته، وأكرمهم بسلطانه، ومكّن لهم فى البلاد، وخوّلهم أمْرَ العباد، أوْجبَ على علمائهم تعظيمَهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظَهم، كما أوجب عليهم طاعتَهم والخضوعَ والخشوعَ لهم. فقال فى محكم كتابه: "وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ."

وقال عز وجلّ: "أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ."

ومنها أنّ أكثرَ العامّة وبعضَ الخاصّة، لمّا كانت تجهل الأقسام التى تجب للملوك عليها - وإن كانت مُتَمَسِّكة بجُمْلة الطاعة - حصَرْنا آدابَها فى كتابنا هذا لنجعلها قدوةً لها وإماماً لتأدّبها[2].

وأيضا فإنّ لنا فى ذلك أجْرَيْن: أما أحدُهما فلِمَا نبّهْنا عليه العامّةَ من معرفة حقّ ملوكها، وأما الآخرُ فلِما يجب من حقّ الملوك علينا من تقويم كلّ مائل عنها وردّ كلّ نافرٍ إليها.

ومنها أنّ سعادة العامّة فى تبجيل الملوك وطاعتها، كما قال أردشير بن بابَك: "سعادةُ الرعية فى طاعة الملوك، وسعادةُ الملوك فى طاعة المالك."

(١) الفقرتان المحصورتان بين نجمتين ** مأخوذتان عن صـ.

(٢) فى صـ لتأديتها.

ومنها أنّ الملوك هم الأُسّ، والرعيّة هم البناء، وما لا أُسّ له مهدوم.

ومنها أنّا ألّفنا كتاباً قبل كتابنا هذا، فيه أخلاقُ الفتيان وفضائلُ أهل البَطَالة(١). وكان غيرُ ذلك أولىٰ بنا وأحقَّ فى مذهبنا(٢) وأحرىٰ أن نصرف عنايتنا إلىٰ ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشِيَمِها، إذ فضّلها الله علىٰ العالَمين، وجَعَلَ ذكرها فى الباقين إلى يوم الدِّين.

ألَا ترىٰ حين ذكر الله تعالىٰ الأُمَمَ السالفة والقرون الخالية، لم يقصدْ من ذكرها إلىٰ وضيعٍ ولا خامل؟

بل قال تعالىٰ حكايةً عمّن مضىٰ منهم: "رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا." وقال تبارك اسمه: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ." وقال جلّتْ عظمته: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ." وقال جلّ وعلا: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ." وقال تقدست أسماؤه: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً." وقال تبارك وتعالىٰ: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ." وقال عزّ وجلّ، وقد بَعَثَ موسىٰ عليه السلام إلىٰ أعتىٰ خلقه وأشدّهم عُنودًا وصُدودًا عن أمره: "اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ."

(١) فسرها فى ص ـ بالشجاعة. وحينئذ تكون مماثلة للفظة Héroïsme عند الفرنسيين.

(٢) فى ص ـ: طبعنا.

فليَفْهم الحكماء هـذه الأُعجوبةَ التى وصلتْ عنِ الله تبارك وتعالىٰ! فإنَّ فيها حكمةً عجيبةً ومَوْعظةً بليغةً وتنبيهًا لمن كان له قلبٌ .

حدّثنا أصحابُنا عن شَبابة عن ورقاء عن آبن أبى نَجيح[1] عن مُجاهد فى قوله تبارك وتعالىٰ: "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا" قال: كَنّاه[2].

وإنّما أمَرَهما بذلك لأن الملوك ـ وإنْ عصَىٰ أكثرُها ـ فمن حقّها أنْ تُدْعىٰ إلىٰ الله بأسْهل القول وألْين اللفظ وأحسن المخاطبة. فإذا كان هـذا حُكم الله فى العاصى من الملوك والذين آدّعَوُا الرُّبوبيّةَ وجحدوا الآياتِ وعاندوا الرُّسلَ، فما ظنُّك بمن أطاع اللهَ منها، وحَفظ شرائعَهُ وفرائضَـهُ، وقُلّد مَقامَ أنبيائه، وجَعَلَهُ الحُجّةَ بعد حُجّته، وفَرَضَ طاعتَهُ حتّى قَرَنَها بطاعته وطاعة رسوله، صلّى الله عليه وسلم؟ :

فرأَيْنـا ـ إذ أخطَأْنا فى تقديمنا أخلاقَ أهل البَطَالة، وإن كان فيها بعضُ الآداب وما يَحتاج إليـه أهلُ الشرف من محاسن الأخلاق ـ أنْ نتلافىٰ مافرَط منّـا بوضع كتابٍ فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لهـا فى أنفسها، وأن نُخصّ بوضع كتابنا هذا الأمير الفتح بن خاقان مولىٰ أمير المؤمنين : إذ كان بالحكمة مشغوفا، وعلىٰ طلبها مثابرا، وفيها وفى أهلها راغبا، ليبقىٰ له ذكرُهُ ويحيا به آسْمُهُ، ما بَقِىَ الضياء والظلام. وبالله التوفيق والإعانة!

إهداء الكتاب

(١) فى صـ : حدّثنا أصحابنا عن مقدام عن آبن أبى نجيح [. وكلهم من رواة الحديث]

(٢) فى هامش صـ : "وكان له ثلاث كُنًى : أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرّة" . وآنظر كتب التفسير، وآنظر "المستطرف فى كلّ فنّ مستظرف" للأبشيهىّ (ج ٢ ص ٤٤).